" البعد الأبستمولوجي في مؤلف " تكوين العقل العربي

للدكتور: محمد عابد الجابري

The Epistemological Dimension in the Composition of the Arab Mind

For the Doctor: Mohamed Abid Al-Jabri

صدام حسين بن يحى [1] * . بشير طبال[2]

صدام حسين بن يحى [(1)] جامعة الاغواط الجزائر، tabbalbachir@gmail.com

بشير طبال[(2)] * جامعة بومرداس الجزائر، tabbalbachir@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2017/11/30 ، تاريخ النشر: 2017/12/31

ملخص:

يعتبر مشروع نقد العقل العربيّ للمُفكّر العربيّ الكبير الراحل الدكتور محمد عابد الجابري من أمّهات المشاريع الفكريّة في مجال دراسات التراث خلال القرن العشرين. و ذلك للطرح الجديد و المنظور الحديث الذي قدمه الجابري في خطابه الأبستيمولوجي من مبدأ أن : " نقد العقل العربي جزء أساسي و أولي من كل مشروع للنهضة " و لا يتأتى هذا حسب الجابري إلا بالقيام برحلة نقدية داخل أروقة الثقافة العربية مستعينا " بمناهج جديدة وشرحها و توظيفها بالتحليل شرط استعمالها استعمالا عقلانيا يمكننا من من دراسة بنية الثقافة العربية الإسلامية و تتبع مسار تكوين العقل العربي في مساره التاريخي من أجل دراسة ابستيمولوجية قدمها لنا الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه " تكوين العقل العربي " .

كلمات مفتاحية: البعد الأبستمولوجي ، كوين العقل العربي ، محمد عابد الجابري .

Abstract:

Critique of the Arab mind the great Arab thinker of the late Dr. Mohammed Abed al-Jabri mothers intellectual projects in the field of heritage studies during the twentieth century, the project is considered. And that the new launch and foreseeable talk given by jabri in his epistemology of the principle that: "Critique of the Arab Mind is an essential part and the initial of each project of the Renaissance" and can not be achieved this by jabri only carry cash a trip inside the corridors of the Arab culture, drawing on "methods of

* المؤلف المرسل: بشير طبال tabbalbachir@gmail.com

new and explained and Toziviha analysis used a condition commonly used rationally enables us to study Arabic and Islamic culture, structure and follow the formation of the Arab mind in the historic track for epistemology study given to us by Dr. Mohammed Abed al-Jabri in his book "the composition of the Arab mind" path

Keywords: The Epistemological Dimension, The Formation of the Arab Mind, Mohamed Abid Al-Jabri

1. اشكالية :

تعد الإبستمولوجيات اليوم من أمهات الموضوعات الفلسفية الأكثر حيوية ، والأشد ارتباطا بالعلم وتشابكاً في نسيجه. وإنها المشهد الفلسفي الذي يعكس التبدلات العلمية في البناء المعرفي. وهي فوق كل هذا المقياس الذي يكشف عن انتماء البناء الفلسفي إلى روح العصر . أو بالعكس يعلن عن اندراجه في خانة من خانات التاريخ الثقافي والمعرفي .

و الإبستومولوجيا، بالدرجة الأولى هي دراسة نقدية لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها بغية تحديد أصلها المنطقي(لا النفسي) وقيمتها ومداها الموضوعي. ، فهي نقد للعلم أكثر منها علم للعلم ، فالأخير ينزع عنها صفتها الفلسفية وكذلك فإن نظرية العلم تبدو حطاً من قدرها الفلسفي، إذ يُلحقها بالعلم ولا تبدو –كما هي عليه فعلاً- رؤية فلسفية وليست نظرية فحسب للعلم. و يعتبر محمد عابد الجابري من أعلام الأبستمولوجيا في السنوات الأخيرة و من بين المفكرين العرب ذوي المشاريع النظرية الأكثر لفتاً للانتباه واجتذاباً للنقاش والجدل في اللحظة الراهنة، وإذا أردنا جمع هذه المشاريع حول سؤال مشترك، يمكن القول إن الهاجس الغالب عليها هو التفكير في سؤال النهضة فكان مدخله المنهجي أبستمولوجيا إذ يرى أنه لا نهضة دون تحصيل آلة إنتاجها أي العقل الناهض، ولا يمكن تحصيل هذا الفكر القادر على صناعة النهضة دون نقد للعقل العربي وبحث صيرورته التاريخية وتحديد المفاهيم المتحكمة في بنيته، من أجل بيان الحاجة إلى عصر تدوين جديد يؤسس للعقل نظاماً معرفياً قادراً على الاستجابة لتحديات الراهن.

وتعد موسوعة الجابري من أضخم مشروعاته و التي أتت بأربع أجزاء "تكوين العقل العربي 1984، بنية العقل العربي 1986، العقل السياسي العربي 1990، العقل الأخلاقي العربي 2001" لتكون عنواناً لمشروعٍ فكري جديد، ونموذجاً لقراءة جديدة للتراث العربي تقرأ فيه ما لم يقرأ بعد وتوظف في إطار هذه القراءة أحدث المفاهيم في حقل العلوم الإنسانية، وذلك في محاولة لاختراق جدار الصمت الذي فرضته المشاريع الإيديولوجية الصماء المنتشرة على امتداد الوطن العربي.

وكان هذا هو المطلب الذي اشتغل المفكر محمد عابد الجابري بقصد إنجازه طيلة ما يقرب من نصف قرن متوجاً ذلك بإنتاج موسوعته "نقد العقل العربي"، هذا الإنجاز الذي رأت اليونسكو أنه يستحق أن يكرم في الاحتفال باليوم العالمي للفلسفة سنة 2006. هذا الإنجاز الذي إن دل عن شيء إنا يدل على التألق و التميز الذي اتسم به فكره بحيث أن طروحات المفكر الجابري، في المقام الأول تتميز بالواقعية والصراحة والموضوعية والتأسيس النظري والتاريخي، إلى ما يمكن أن نطلق عليه "أزمة الإنسان العربي"، التي نسبها الجابري بحق إلى "أزمة العقل العربي"، باعتبارها السبب الأساس في فشل مشروع النهضة العربية، وبالتالي وصول العرب اليوم إلى ما هم فيه من ضعف وإذلال وتمزق وسيطرة أجنبية وتخلف حضاري واقتصادي وعلمي، على الرغم مما يزخر به الوطن العربي من ثروات طبيعية وبشرية.

وعلى ضوء ما سبق سنحاول من خلال مداخلتنا لمس البعد الإبستيمولوجي من خلال قراءة لكتاب تكوين العقل العربي لعلم من أعلام الأبستمولوجيا في الوطن العربي .

و تكتسي قضية النهوض بالعقل العربي أهمية بالغة، يُدَقُّ ناقوس خطرها راهنا في ظل اجتياح عواصف العولمة والتقنية والتقليد الأعمى الذي غيَّب هوية الإنسان المعاصر، وبما ان العقل في جوهره عالمي الهوية و الجذور، إنساني الملامح و الآفاق، فانه في مختلف مستوياته يعكس لنا الواقع هذا الواقع الذي واجه خلال تطوره العديد من الاشكاليات التي مازالت تمثل تحديات حقيقية ، تعددت حولها الآراء وتباينت المواقف و الاتجاهات وافرزت

تيارات فكرية متنوعة خضعت للنقاش والنقد والتقييم وأخرجت نتاجا فكريا غنيا كان له دور في صياغة مبادئ واسس اسهمت بشكل كبير في توجيه الفكر العربي .

يعتبر عابد الجابري من بين المفكرين العرب ذوي المشاريع النظرية الأكثر لفتاً للانتباه واجتذاباً للنقاش والجدل في اللحظة الراهنة، وإذا أردنا جمع هذه المشاريع حول سؤال مشترك، يمكن القول إن الهاجس الغالب عليها هو التفكير في سؤال النهضة، مع اختلاف في كيفيات طرق السؤال والإجابة عنه، بسبب تعدد واختلاف المداخل المنهجية التي توسل بها أصحاب تلك المشاريع.

أما المدخل المنهجي، الذي اختاره الجابري فلم يكن مدخلاً سياسياً ولا اقتصادياً بل إبستمولوجياً، فالابستمولوجية تأتي كمقدمة لإبراز الملامح التوسيلية لاختياره الفكري، فإن هذا الأمر يبدو جليا في تعامله مع جملة من المفاهيم الكاشفة لطبيعة المشروع الذي انتدب نفسه للدفاع عنه. وهو المشروع الذي يروم، في جملته، الدفاع عن الحداثة كأفق في النظر والعمل المفتوح على مكاسب التاريخ المعاصر،إذ يرى أنه لا نهضة دون تحصيل آلة إنتاجها أي العقل الناهض، ولا يمكن تحصيل هذا الفكر القادر على صناعة النهضة دون نقد للعقل العربي وبحث صيرورته التاريخية وتحديد المفاهيم المتحكمة في بنيته، من أجل بيان الحاجة إلى عصر تدوين جديد يؤسس للعقل نظاماً معرفياً قادراً على الاستجابة لتحديات الراهن .

2- عرض لمحتوى الكتاب :

كان لمشروع «نقد العقل العربي»، ولا زال، أثر عميق في الساحة الفكرية العربية، بما أثاره من نقاشات وسجالات بين الفلاسفة والمفكرين والباحثين العرب منذ صدور أول أجزائه «تكوين العقل العربي» سنة 1982، وحتى آخر حلقاته «العقل الأخلاقي العربي» الصادر سنة 2001.

و يتكون مشروع «نقد العقل العربي» من أربعة أجزاء. يحمل الجزء الأول عنوان: «تكوين العقل العربي»، حيث صدرت طبعته الأولى سنة 1982، ليصدر الكتاب في طبعات أخرى بلغ عددها اليوم إحدى عشرة طبعة.

وله مشروع ثقافي كبير يهدف من خلاله تسليط الضوء على نقد العقل العربي انطلاقا من أربعة أجزاء:

الجزء الأول: تكوين العقل العربي

الجزء الثاني: بنية العقل العربي

الجزء الثالث: العقل السياسي العربي

الجزء الرابع: العقل الأخلاقي العربي

و ما يهمنا هو الجزء الأول الذي نتبناه بالدراسة و التحليل من أجل لمس البعد الأبستيمولوجي الذي جزئه الأول (تكوين العقل العربي)

حيث صدر كتاب «تكوين العقل العربي» في طبعته الأولى عن دار الطليعة-بيروت عام 1984، وأعيد طبعه عام 1985 من قِبَل دار النشر نفسها ؛ ثُم صدرت طبعته الثالثة عن مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت عام 1988، وتعددت طبعاته إلى أن وصلت الآن إحدى عشرة طبعة سنة (2011).

ويَتألّف الكتاب من قسمين الاول يناقش فيه :

ماهية العقل العربي ؟

ما علاقته بالثقافة العربية ؟ وكيف كان عصر التدوين كبداية أو مرجع للثقافة العربية ؟

اما القسم الثاني فاهتم الدكتور الجابري بتكوين العقل العربي المعرفي والايديولوجي في الثقافة العربية ,و اعتمد في ذلك على المنهج البنيوي التكويني .وكذا ا لمرجعية الأكاديمية للغويين في تأسيسهم لعلوم اللغة النحو.

ومنه خاتمة «العلم والسياسة في الثقافة العربية».

2- تعريف الابستمولوجيا :

(نظرية العلم) théorie de la science تعني حرفيا épistémologie ان كلمة مصطلح صيغ من كلمتين يونانيتين : ، (épistémologie) فالإبستمولوجي وهو موضوع (الإبستمولوجيا) ومعناها: علم épistémé) الإبستمي)

ومن معانيها: علم، نقد، نظرية، دراسة ويدل على المنهج.logos) اللوغوس)

فالابستمولوجيا إذا، من حيث الاشتقاق اللغوي هي " علم العلوم "ويعني هذا " العلم المعرفة

ويعرفها أندري لالاند " André laland"على أنها الدارسة النقدية للمبادئ والنتائج الخاصة بالعلوم، تهدف لمعرفة أصولها المنطقية، قيمها و ثقلها الموضوعي. فهي إذن " عبارة عن المبحث الذي يعالج معالجة نقدية مبادئ العلوم المختلفة وفروعها ونتائجها، بهدف إرساء أساسها المنطقي كما أنه يشهد تجديد قيمة العلوم، ودرجة موضوعيتها ." (مليكة جابر،2012،ص4)

كما يعرف "محمد عابد الجابري" الابستمولوجيا على أنها " الدراسة النقدية لمبادئ العلوم ، وفروضها ونتائجها بقصد تحديد قيمتها ونفعها ".(محمد عابد الجابري ،2002،ص14)

ويقدم "الجابري" تعريفا اخر جامعا للابستمولوجيا فيقول " انها كل تلك الابحاث المعرفية منظور اليها من زاوية معاصرة ،اي من خلال المرحلة الراهنة لتطور الفكر العلمي الفلسفي ، إن الابستمولوجيا هي"علم المعرفة "وبما ان المعرفة هي علاقة بين الذات العارفة والموضوع الذي يراد معرفته ، فان الابستمولوجيا هي العلم الذي يهتم بدراسة هذه العلاقة التي هي بمثابة جسر يصل الذات بالموضوع والموضوع بالذات بل جسر يخلق الذات من خلال انفعالها بالموضوع ويخلق الموضوع من خلال فعل الذات فيه ، هو حوار بين الذات والموضوع ابستمولوجيا.

اما عن موضوعها فيكون فحص عملية البناء بتتبع مراحلها ، والنقد اساسها تبيان مدى ترابط اجزائها ، محاولة الكشف عن ثوابتها صياغتها صياغة تعميمية و محاولة استباق نتائجها .(براق نسيمة ،2014،ص 47)

للدكتور محمد عابد الجابري مشروع نقدي تجلي في قوله :

" مشروعنا هادف اذن نحن لا نمارس النقد من اجل النقد ، بل من أجل التحرر مما هو ميت و متخشب في كياننا العقلي و إرثنا الثقافي و الهدف فتح المجال للحياة كي تستأنف فينا دورتها و تعيد فينا زرعها و لعل تفعل ذلك قريبا "

و انطلق المشروع النقدي للدكتور محمد عابد الجابري المتمثل في موسوعته «نقد العقل العربي» من مبدأ أن : " نقد العقل العربي جزء أساسي و أولي من كل مشروع للنهضة " و يقصد تحديدا الدكتور في مؤلفه الاول من الموسوعة " تكوين العقل العربي "

هو نقد العقل العربي المتشكل داخل الثقافة العربية " و ذلك من خلال القيام برحلة نقدية داخل أروقة الثقافة العربية " (محمد عابد الجابري ،1984،ص298)

3-القسم الأول

ماهية العقل العربي ؟

ما علاقته بالثقافة العربية ؟ وكيف كان عصر التدوين كبداية أو مرجع للثقافة العربية ؟

1-العقل العربي في هذه الدراسة :

حسب الدكتور محمد عابد الجابري هو الفكر بوصفه أداة (للإنتاج النظري) صنعتها ثقافة معينة لها خصوصيتها وهي الثقافة العربية بالذات ، والتي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام وتعكس واقعهم أو تعبر عنه وعن طموحاتهم المستقبلية وعن عوائق التقدم وأسباب تخلفهم الراهن .

والفكر العربي هنا هو نتيجة الواقع العربي بكل خصوصياته

ويري ان المثقف لا ينسب إلى ثقافة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها والتفكير داخل ثقافة معينة لا يعني التفكير في قضاياها بل التفكير بواسطتها

حاول الدكتور الجابري في هذه الدراسة المفصلة ، إبعاد الذات عن النقد , إنه لا يمارس النقد من أجل النقد ، بل يمارس النقد من أجل التحرر مما هو ميت أو مخشب في موروثنا الثقافي كما قال في هذا الكتاب.

إنه لا يهدف إلى كتابة تاريخ الفكر العربي, و إنما الهدف من هذه الدراسة هو معرفة المراحل التي مر منها العقل العربي انطلاقا من عصر التدوين ,وأن الحاجة ملحة لإعادة كتابة الثقافة العربية, لأننا الآن نجتر ما قاله السابقون, ونختلف كما اختلفوا ، لأن العرب يعتمدون على الفرق و الطبقات و أن هذا النوع من الثقافة يؤدي إلى اختلاف الرأي ، و ليس الاختلاف المحمود و إنما الاختلاف المذموم الذي يؤدي إلى التفرقة و التشرذم ، و المطلوب هو الدعوة إلى خلق ثقافة تهتم ببناء الرأي وتقدمه.

تجلى بعده الابستيمولوجي حين انطلق الدكتور محمد عابد الجابري من نقد واقع هاته الثقافة التي يعيش فيها العقل العربي واكد على حاجة العقل العربي للنظر و اعادة كتابة الثقافة العربية، و يرى اننا ندور في حلقة مفرغة نكرر و نجتر ما قاله الأولون ممن سبقونا دون تجديد أي جمود و ركود فكري و عقل عربي تاه ومتقوقع بل و ذهب اكثر من ذلك وقال ان نوع هاته الثقافة السلبية يؤدي إلى الاختلاف في الرأي و أوضح أنه اختلاف هدام و سلبي لا يقدمنا للأمام و يصلح حالنا بل

يجعلنا نتقهقر فيكون مصيرنا التفرقة والتشرذم. لذا دعا الدكتور محمد عابد الجابري الى خلق ثقافة بناءة تدفع بنا الى الأمام ثقافة ايجابية خالية من العصبية الجاهلية و التعصب الاعمى الموروث عن اسلافنا الذي يفرق اكثر مما يجمع و يلم شتاتنا المتفرق هنا وهناك الامر الذي ينذر بالخطر و يجعلنا نعيش صراعات بسبب التفرقة المبنية على الجهل والبعيدة عن تعاليم ديننا الحنيف الذي ينادي و يأمر بعكس ذلك و هو ما وجدناه في قول الدكتور :

وهذا الأسلوب المعرفي القائم على الطائفية و التعصب هو الذي ورثناه من أجدادنا ، فهو قائم على مبدأ المذاهب و الطوائف . فبعدما كان الدين هو الذي يجمع المسلمين ، أصبحت النظرة الطائفية تفرقهم إلى أقليات و انعكس هذا الصراع على مستوى الفكر و المعرفة.

فالعقل عند الجابري تكون مع بداية تفسير القرآن الكريم ,وتقعيد اللغة ، و تأسيس قواعد أصول الفقه, وقد اعتمد في هذا الكتاب على المنهج البنيوي ، وذلك بالتأكيد على ضرورة التعامل مع الموروث الثقافي كبنية داخلية معزولة عن المحيط الاجتماعي.

و الملاحظ في هذه المقاربة المعرفية عند الدكتور الجابري أنها تنظر إلى النصوص كإطار لغوي , و ينبغي علينا أن نشير بأننا لا يمكننا عزل هذه النصوص عن المؤثرات الخارجية, كما ينبغي التعامل مع هذا التراث دون نزعة طائفية ضيقة ، لأن العيب ليس في التراث وإنما العيب في النظرة المسبقة التي يحملها القارئ عن هذا التراث .

والطريقة التي حصر بها الدكتور محمد عابد الجابري مرحلة تكوين العقل العربي بأنها ابتدأت من عصر التدوين ، يقلل من قيمة العقل العربي ويحد من قدراته .

فالإسلام لم يرفض كل ما قبله بل اعتمد على الجانب المنير في العقل العربي القديم ,حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم أعجب بقصائد شعرية غاية في الروعة لشعراء الجاهلية ، كما أنه لم يلغ بعض القيم الأخلاقية و السلوكيات الجميلة وحافظ عليها و رعاها.

1- عصر التدوين كبداية أو مرجع للثقافة العربية

تعتبر النقطة الفاصلة التي تفصل القديم و الجديد في العقل العربي ، هي مرحلة نزول القرآن الكريم ,حيث إنه سطر نوعا جديدا من الفكر و المعرفة وعقلية جديدة كذلك بشكله ومضمونه وأعطى الانطلاقة الحقيقية لإعمال العقل العربي أما مرحلة التدوين فهي مترتبة عن مرحلة نزول القران الكريم.

ولو افترضنا أن مرحلة التدوين هي بداية تشكيل وتكوين العقل العربي، فإن التدوين بدأ في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث إن القران كان ينزل منجما وكان الصحابة يدونوه وقت نزوله.

صحيح انه في القرن الثالث الهجري كان هناك ازدهار ثقافي وحضاري ، لكن هذا الانفتاح على ثقافة الشعوب الأخرى وخاصة الفكر الفارسي و الهندي و الفلسفة اليونانية المترجمة في بيت الحكمة أو غيره من المراكز العلمية حينذاك , كان له أثر سلبي على الثقافة الإسلامية

لأن المنطق الأرسطي في اعتقادي أثبت فشله في اليونان وانتهى بنهاية الحضارة اليونانية , فالمادة مثلا عند أرسطو تتكون من عناصر ، لكن العقل العربي الإسلامي أصبح يعرف الذرة ، أو أقل منها كما جاء في القران الكريم . وجابر بن حيان الفيزيائي المعروف قال في ذلك الوقت : إن بإمكان الذرة تفجير بغداد ، إذن ما وجه المقارنة بين الفكر الأرسطي و الفكر الإسلامي.

و الجابري ينطلق في هذا الكتاب من مسلمة أساسية، هي أن أي تقدم لا يمكن أن يتم إلا إذا قمنا بنقد علمي للعقل العربي , و أن النهضة العربية لا تقوم إلا إذا شرحنا العقل العربي منذ القديم وعرفنا مكامن القوة ومكامن الضعف فيه وقمنا بمحاولة إصلاح الخلل الذي يعيق التقدم الحضاري والمعرفي لهذه الأمة التي طال سباتها.

وهذا الكتاب في نظره هو محاولة أولى على الطريق لبداية نقد العقل العربي ، الذي من المفروض أننا انتهينا من نقده منذ سنين طويلة . و اعتبر أن القراءات النقدية السابقة كانت موجهة(استشراقية, سلفية,قومية) و أن قراءته النقدية للعقل العربي فهي بنيوية ، بعيدة عن الذات الدارسة, وهذا في نظري غير معقول لأن الإنسان أثناء دراسته للموروث الثقافي ، لا يمكن عزل الذات الدارسة عن الموضوع المدروس وخاصة أن المنهج الذي اعتمده الجابري كما قال هو المنهج البنيوي التكويني , و البنيوية التكوينية منهج ماركسي يؤمن بالجدل المادي و التاريخي وصراع الطبقات . .

4- القسم الثاني :

1-الاعرابي صانع العالم العربي:

هناك الكثير من المعطيات التي تبرر اعطاء الاولوية للغة العربية في دراسة مكونات العقل العربي فالعربي يحب لغته الى درجة التقديس ، ذلك لان هو الوحيد الذي يستطيع الاستجابة لهذه اللغة و الارتفاع بها إلى مستوى التعبير البنائي الرفيع الذي يتميز به ، ومن جهة اخرى فان اهم ما ساهم به العرب في الحضارة الاسلامية التي ورثت الحضارات السابقة لها هو اللغة والدين ، فإن الدين بقى عربيا ، ولا يمكن ان يستغني عن لغة العرب ، لأن القرآن وهو (كتاب عربي مبين)لا يمكن نقله الى لغة أخرى دون المساس به "العربية جزء ماهيته ".

كما ان الواقع التاريخي يؤكد أن اول عمل علمي منظم مارسه العقل العربي هو جمع اللغة العربية ووضع قواعد لها ، وفي حالة لهذه يكون من الطبيعي ان يتخذ العمل العلمي الاول الذي انتج علم اللغة و علم النحو نموذجا للأعمال العلمية الاخرى التي قامت من بعده ، ومنه تكون المنهجية التي اتبعها اللغويون و النحاة الاوائل وكذلك المفاهيم التي استعملوها و الاليات الذهنية التي اعتمدوها عند جمع اللغة العربية وتقعيدها من المنتظر ان يكون ذلك كله اصلا يعتمده مؤسسو العلوم الاسلامية، وتقوم على الاستماع الى الاعراب ، واهم شرط وضع فيمن تأخذ اللغة عنه ان يكون خشنا في جلده فصيحا في لسانه "لقد اعتبر اللغويون جفاء العربي وخشونته وبقاءه محروما من الترف وليونة الجلد اساسا لاخذ اللغة عنه والاحتجاج بكلامه " .

وهذا ما يوضحه الجابري بقوله: «لقد جمعت اللغة العربية من البدو العرب الذين كانوا يعيشون زمنا ممتدا كامتداد الصحراء، زمن التكرار والرتابة، ومكانا بل فضاء فارغا هادئا، كل شيء فيه صورة حسية، بصرية أو سمعية. هذا العالم هو كل ما تنقله اللغة العربية إلى أصحابها، اليوم وقبل اليوم، وسيظل هو مادامت اللغة خاضعة لمقاييس عصر التدوين».

والنتيجة هي " اذا ما اكتسب الاعرابي صفتي البداوة والفصاحة –بالشهرة او بالاختبار – اصبح من حقه هوان يتحكم في العلماء وآرائهم بالتصويب والتخطئة، ويصبح حينئذ قانونا ينصاغ له العلماء وهكذا ينقلب الاعرابي بسر تلك البداوة المباركة استاذا للعلماء يتحاكمون اليه في الخصومات والخلافات ".حيث اعتبروا كل ما هو قديم علامة على الجودة ، اما الحديث المعاصر فمحكوم عليه بالتزييف والرفض والانكار".

والنتيجة بحسب الجابري هي: تحكم القديم وهيمنة عالم الأعرابي على الذوق، بل على الفكر العربي عموما. وهذا ما ليس بالطبيعي، ويجب أن يفهم كي يغير: «أن يظل الذهن العربي مشدودا، إلى اليوم، إلى ذلك العالم الحسي اللاتاريخي الذي شيده عصر التدوين اعتمادا على أدنى درجات الحضارة التاريخية عبر التاريخ، حضارة البدو الرحل التي اتخذت كأصل ففرضت على العقل العربي طريقة معينة في الحكم على الأشياء، قوامها: الحكم على الجديد بما يراه القديم".(محمد عابد الجابري ،1984،ص78)

هذا هو القانون الذي حكم ويحكم تطور الأدب العربي بل الفكر العربي كله منذ عصر التدوين إلى اليوم . إنه القانون الذي يفرضه العالم الذي تقدمه العربية لأهلها العالم الذي باركته الصنعة اللغوية وزكاه الأعرابي أستاذ العلماء، كما انها النظرة اللاتاريخية التي تحملها اللغة العربية عن العالم كونها كانت ولازالت تجر معها عالم ذلك (الاعرابي) الذي كان يعيش (ما قبل التاريخ) العربي، عالم الخشونة والبداوة.

2- التشريع للمشروع (تقنين الراي وتشريع الماضي)

يعتبر الفقه نتاج عربي إسلامي خالص، ويُنظر إليه كحضارة انتجها هذا العقل العربي كما انتج العقل اليوناني حضارة الفلسفة، والجابري ينفي استقاء الفقه لجذور سابقة له كما توصل ذلك بعضاً من المستشرقين الذين حاولوا ايجاد جذور للفقه. حيث ميز الجابري زمنياً بين " الفقه العملي" و " الفقه النظري"، فقصد أن الفقه العملي المعايشة الشرعية للحالات والقضايا الواقعة حيث يسأل أصحابها الفقهاء ليجدوا الجواب وهي مرحلة ما قبل

التدوين، أما الفقه النظري فقد بدأ في مرحلة التدوين التي حُشدت فيها العقول لحصر العلوم وتقييدها، حيث حلّ الفقه في شكل مسائل وقضايا مفترضة، يفترضها الفقهاء ليرسوا قواعد أصيلة ثابتة دائمة.

ترجع خصوصية العقل العربي لعلم أصول الفقه كعلم يتوسل بواسطة قواعده استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة ليشرع للعقل ذاته و قد انفردت به الثقافة الإسلامية دون الثقافات السابقة إستهدف هذا العلم إنشاء علم للقانون يتميز عن القوانين التفصيلية الخاصة بالسلوك يمكن تطبيقه في أي مكان أو عصر. و قد طبعت الطريقة الفقهية طريقة عمل العقل العربي لتحدد بعد ذلك طريقة عمله في النحو أو الكلام أو غيرها من العلوم، لينشأ نتيجة لذلك تيارين احدهما يتمسك بالموروث الإسلامي و يعتبره الأصل الذي يجب إعتماده فيما جد أو في فهم الموروث الإسلامي نفسه و الآخر يتمسك

بالرأي و يعتبره الأصل أي الاجتهاد في فهم النص القرآني على ضوء أحكام العقل لكن الصراع بين هذين الاتجاهين لم يكن بين القديم و الجديد و لا بين الثابت و المتحول بل كان صراع بين وجهات نظر لم تكن تعتمد نفس الأصول و المقدمات في معالجتها للقديم و الجديد معاً و يعبر عن أزمة أسس نتيجة حاجة العلوم الإسلامية لإعادة تأسيسها منطقياً و إبيستمولوجياً بعد أن تم تأسيسها عمليا من خلال تدوين العلم و تبويبه.

فمنذ عصر التدوين وحتى تبلورت قواعد واصول علم الفقه وعلم أصول الفقه، كان هناك صراع متجدد بين فريق يرى بالأخذ بالموروث الاسلامي والالتزام بالتواتر وفريق يرى بضرورة الرأي والاجتهاد، ويرى الجابري" أن هذا الصراع ليس في صراع تيارات أو مذاهب مُحكمة بقدر ما هو صراع وجهات نظر.(محمد عابد الجابري،1984 ،ص- ص99،،118)

فان الاهتمام بالاعمال العلمية العربية الاصلية والاصيلة الى النحو والفقه والكلام والبلاغة باحثين عن طبيعة الفعل العقلي الذي يؤسس الانتاج المعرفي فيها . والتداخل والتكامل بين النحو والفقه والكلام على مستوى المنهج هو واقعة أساسية في الثقافة العربية الإسلامية على مستوى التشريع العقلي .

و يمكن ان نؤكد أن طريقة عمل العقل العربي سواء في الفقه أو النحو أو الكلام ، هي طريقة واحدة تقوم على نفس الآليات أو الميكانيزمات التي تقوم عليها طريقة الفقهاء.

ومنه فإن عملية التشريع للمشرع (تقنية الرأي وربط القياس بمثال سابق) سواء في النحو أو الفقه أو الكلام أو البلاغة لم تكن تدخل كلها في دائرة الفعل المتطور والمنطلق للعقل العربي إنما هي سلسلة من ردود الفعل للدفاع عن الذات أحيانا ضد عدو خارجي وأحيانا لاستعادة التوازن الذاتي المختل الذي يهدد البيان العربي (الموروث القديم).

.3المعقول الديني واللامعقول العقلي:

ان التميز بين المعقول (الديني) واللامعقول العقلي في الثقافة العربية الاسلامية ، باعتبار الاول موروث عربي اسلامي محض ، اما الثاني يمثل اللامعقول وهو الموروث القديم، ان كل منهما يتحدد بواسطة الاخر ومن خلاله .

وتكتسب جدلية المعقول واللامعقول في القرآن صورة صراع بين التوحيد والشرك فالمعقول في القرآن يتحدد باللامعقول لأنه لما كان الشرك يقتضي تعدد الآلهة وهو تناقض لا يقبله العقل فإن نقيض الشرك (التوحيد) هو وحده المقبول فقدم القرآن كفاح الأنبياء على أنه نشر خطاب العقل و ترجيحه وتسويده على خطاب اللاعقل المكرس للشرك .

يتحدد المعقول الديني العربي بثلاثة عناصر أساسية :

- وجوب معرفة الله من خلال تأمل الكون .

- والقول بوحدانية الله ونفي الشريك فلا خالق ولا مدبر إلا هو .

- القول بالنبوة وأنها اصطفاء وأن محمدا خاتم الأنبياء والاتصال بالله لم يعد ممكنا .

هذه العناصر يتحدد بها أيضا اللامعقول العقل الذي كان يجره معه الموروث القديم .

إن الفتح الإسلامي كان فتحا للبلدان ولثقافتها القديمة ولم يكن الحقل المعرفي العربي في نموه لم يكن خاضعا لوتائر إمكانياته الداخلية وحدها بل ربما كان أكثر اعتمادا على مدى

ما استفاده من الموروث القديم وبما أنه حقل ديني محكوم بالنص القرآني فإن الفتح الذي تعرض له كان عن طريق التضمين تضمين النص جزءا أو أجزاء من الموروث القديم وذلك هو التأويل . (نفس المرجع السابق، ص137)

ومنه فان المعقول الديني هو الموروث العربي الإسلامي المحض واللامعقول العقلي هو اللامعقول في الموروث القديم .

يرى محمد عابد الجابري أن التراث يستدعي قراءة ابستمولوجية تستوجب الحفر فيه، قصد إعادة بنائه وتشكيله، والتواصل معه. ولذلك قام الخطاب الابستمولوجي عند الجابري على ما حصل لديه من قناعة راسخة مؤداها أن تجديد الفكر العربي أو نقد العقل العربي، لا يمكن أن يتم فقط بالدعوة إلى استعمال مناهج جديدة وشرحها، لكنه يتطلب أيضاً استعمالاً عقلانياً لهذه المناهج وتوظيفها تحليلياً في درا سة تراثنا (محمد خالد الشايب،2012،ص790)

لذا استعان الجابري على المنهج التحليلي من أجل تحليل بنية النص عبر كشف الغطاء عن العلاقات القائمة بين عناصرها بوصفها منظومة من العلاقات الثابتة في إطار بعض التحولات كتحويل الثابت إلى متغير، والمطلق إلى نسبي، واللاتاريخي إلى تاريخي واللازمني إلى زمني، وبالتالي الكشف عن المعقولية الثاوية وراء كثير من الأمور التي تقدم نفسها كسر مغلق كميدان اللامعقول مستغن عن المعقولية بفعل التقادم الذي يجعل التراث مقطوع الصلة عن زمانيته وأسباب نزول (محمد عابد الجابري ،1991 ،ص791)

.4العقل المستقيل في (الموروث القديم) و (الثقافة العربية الاسلامية)

ان التعامل مع الموروث القديم بل ومع الموروث الاسلامي نفسه كان يتم قبل عصر التدوين على المستوى (العامي) فقط ان لم يكن هناك اي تدوين يزاحم الكتاب المدون، القران الكريم الكتاب العربي المبين

و لقد سبق لابن خلدون ان لمس عن قرب بفضل حسه النقدي ضرورة هذا التمييز التميز بين مستوى (العالم) والمستوى (العامي) في الموروث القديم داخل الفضاء الثقافي العربي الاسلامي .

ولاحظ ابن خلدون أن المفسرين الأوائل استعانوا بالموروث اليهودي (الإسرائيليات) وأهل التوراة كانوا بادية لا يعرفون إلا ما يعرفه العوام من أهل الكتاب .

ومن دون شك فإن ما لاحظه ابن خلدون بصدد الإسرائيليات يصدق على الأصناف الأخرى من الموروث القديم.

وإن البحث عن أصول الثقافة الإسلامية العربية وفصولها انطلاقا من حياة العرب العقلية في العصر الجاهلي (إلى قبل بداية التدوين) هو كالبحث في الوقت الحاضر عن أصول اللغة العربية الفصحى وقواعدها في اللهجات العامية المعاصرة حيث ان التطور الداخلي للحياة الفكرية العربية في العصر الجاهلي أبعد ما يكون من أن يفرز بمفرده ذلك التنوع والغنى في الآراء والرؤى والاستشرافات والمذاهب التي شهدها المجتمع العربي بعد قرن من ظهور الإسلام و نحن ندعو إلى إدماج التاريخ الثقافي للمراكز الحضارية والعلمية التي كانت تقع داخل الوطن العربي قبل الإسلام من أجل وصل تاريخنا الثقافي بالتاريخ العالمي ومن أجل تبيان مكونات الثقافة العربية الإسلامية وفحصها ونقدها وصولا إلى إعادة بناء الذات العربية على أسس جديدة سواء كان مصدرها العصر الجاهلي العربي و المراكز العلمية المشار إليها ذاتها.(نفس المرجع السابق ،ص165،ص189)

ومنه نستنتج أننا لا نستطيع ان نتطرق الى اصول الثقافة العربية وفصولها بالانطلاق من نقطة ما بعد العصر الجاهلي ، وان الموروث القديم هو جزء لا يتجزأ في الثقافة العربية الاسلامية التي تشكل اهم عنصر في الشخصية العربية . بالإضافة الى وصل تاريخنا الثقافي بالتاريخ العالمي من أجل تبيان ثقافتنا العربية الاسلامية و فحصها و نقدها على حد قول الجابري من أجل إعادة بناء الذات العربية . هذه الذات التي تميعت وتاهت في ظل سطوة

ثقافة الغالب وبحيث ان المغلوب يتأثر بثقافة الغالب وذلك لسطوته وسيطرته عليه حسب قول ابن خلدون فالثقافة العربية الاسلامية تأثرت برياح الثقافة الغربية والعالمية معاصرة لها دون محافظة على أصالتها وموروثها وهويتها التي أفقدتها ذاتها العربية بل وأفقدت حتى دينها الاسلامي وهنا أدهى وأمر.

.5تنصيب العقل في الإسلام.

لجأت الدولة العباسية في عهد المأمون إلى العمل على تنصيب العقل في الثقافة العربية الإسلامية وأقامت التحالف بينه وبين المعقول الديني العربي لصد هجمات الغنوصية التي كانت تهدد الدولة العباسية والفكر الديني الرسمي بشقيه المعتزلي والسني .

- كان الإسلام حين ظهوره ثورة على الهرمسية (العامية) ... وحركة الاحياء في عهد المأمون كانت ثورة على الهرمسية (العالمة) .

- الثقافة العربية الإسلامية مدينة للفارابي في مجال المنطق أكثر مما هي مدينة لغيره ممن جاءوا قبله وبعده .

- العقل البشري يكفي نفسه بنفسه ولا يحتاج إلى أصل يعطى له من خارج ليقيس عليه ما يستجد من أمور وأحوال ولا إلى إلهام يأتيه بالمعرفة من هذه الجهة أو تلك ولا إلى معلم ينقل إليه تلك المعرفة .

- الحكماء يتصورون الحقائق كما هي والمؤمنون ترتسم في نفوسهم خيالاتها ومقالاتها، فيكون ما يقرره الدين محاكيا لما تبرهن عليه الفلسفة .

- الدين والفلسفة يعبران عن حقيقة واحدة يستفيدها الفيلسوف بالعقل أما النبي فيتقبلها من نفس المصدر ولكن بمخيلته فقط .

- كانت الثقافة العربية الإسلامية يتقاسمها النظام البياني والأيدلوجية السنية من جهة والنظام العرفاني والأيدلوجية الشيعية من جهة ثانية (العقل المستقيل) فجاء الفارابي

بخطاب العقل الكوني الذي يؤسس نظام البرهان وسجل ذلك لحظة جديدة في تاريخ العقل العربي .

ان تنصيب العقل في الثقافة العربية الاسلامية لم يكن بالأمر الهين وذلك لتقاسم هذه الاخيرة نظامين بتياران ايديولوجيان متصارعين تاريخيا النظام البياني والايديولوجية السنية ، والنظام العرفاني و الايديولوجية الشيعية ومنه فهذا يؤثر على النظام البرهاني في الثقافة العربية الاسلامية .(محمد عابد الجابري ،مرجع سابق ،ص223)

هذا الصراع السني الشيعي القديم الجديد هذا الصراع التاريخي أثر و يؤثر على الثقافة العربية الإسلامية وعلى العقل العربي في نفس الوقت لكون الثاني جزء لا يتجزأ من الأولى بحيث يجمد هذا الصراع عجلة الفكر و التطور و التقدم الى الامام و جعلنا نرجع خطوات الى الوراء لانه أثر أثرا بالغا و غير في مدرى تاريخنا و مزال يغير . و لم نهتد الى ان جوهر حضارتنا الاسلامية كان قائما على الوحدة و التكاتف و التعاون و الأخوة والدين الواحد الخال من الصراعات، هذا المبدأ هو من حقق و ضمن لنا الصدارة و العالمية و السيطرة يوم كان الحاكم الواحد و الكلمة الواحدة التي تجمع ولا تفرق عقل عربي اسلامي متطور ذا اتجاه عالمي وشمولي يستمد شموليته من دين الاسلام الصالح لكل الامم و العقول . فتخلى العرب عن ماضيهم و صراعاتهم وعصبيتهم القبلية و اقتتالهم الدائم على توافه الامور وذلك لجهل و جمود عقل هاته السلبيات نفسها أعادت نفسها بمسى التاريخ يعيد نفسه وفعلا وصارت بين العرب المسلمين اقتتال و صراع أثر على الثقافة العربية الإسلامية و شوه صورتها .

.6أزمة الأسس وتأسيس الازمة:

الأزمة التي يعنيها هنا هي أزمة اصطدام بين مدرسة بغداد المنطقية التي تكرس النظام المعرفي البرهاني داخل الثقافة العربية الإسلامية وبين النظام البياني المعرفي القائم في هذه الثقافة وبالتالي فان الازمة التي تعانيها هي ازمة " الاسس " في الثقافة العربية الاسلامية، وعلاقة

المدرسة البغدادية بهذه الازمة راجع الى كونها المدرسة التي تكرس داخل الثقافة العربية النظام المعرفي البرهاني، وبالتالي راجعة الى الاصطدام البرهان ب " البيان ". والصراع بين النحو والمنطق أو بين البيان والبرهان بدأ مع بداية تنصيب العقل الكوني بدأ منذ زمن الكندي وربما منذ زمن الشافعي وهذا يبين ما نريد أن نقوله هنا فلقد أصبحت المشكلة المطروحة الآن هي : اختلاف مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال عن مصطلح اليونان

فان إشكالية العلاقة بين النحو والمنطق فإن كان النحو إنما يعطينا قوانين تخص ألفاظ أمة ما فإن علم المنطق يعطي قوانين تعم ألفاظ الأمم كلها ثم إن كل ما يعطينا اياه علم النحو من القوانين في الألفاظ فإن علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات .

أزمة الأسس أسست لأزمة العقل العربي الحائر و التائه بين النظام المعرفي البرهاني و النظام البياني المعرفي بين النحو و المنطق كلها أثرت على الثقافة العربية الاسلامية في حين لوكان التكامل بينهما و التزواج لكان أفضل و أصلح لصالح الثقافة العربية الإسلامية .

.7بداية جديدة ... ولكن قد انطلقنا في دراستنا هذه من قضية أساسية هي أن الثقافة العربية قد ظلت وإلى اليوم ذات زمن ثقافي واحد يشمل ما بعد عصر التدوين وما قبله هذا بالنسبة للتاريخ الثقافي .

أما بالنسبة للتاريخ السياسي فإن الناظر إلى الخلافة العباسية كدولة تمارس السلطة على المجتمع باسم الدين والتاريخ فأننا سنجد عصورها عبارة عن (زمن سياسي وأيديولوجي واحد)

لقد كان الشيعة وما تفرع عنهم من حركات سياسية معارضة سرية أو علنية هم (الآخر) في الايدولوجيا السياسية العباسية

ولقد خرج على الدولة العباسية دولتا الأدارسة في المغرب والأموية في الأندلس ولئن كانت الأولى مشيعية علوية والثانية مروانية أموية إلا أن الآخر بالنسبة لكل منهما واحدا وهو الدولة العباسية .

ولما نجح الشيعة في إقامة الدولة الفاطمية بأفريقية صار للدولة الأموية خصمان تاريخيان يهددانها هما العباسيون والفاطميون الإسماعيليون وهذا ما جعل الزمن السياسي الأموي في الأندلس بالضرورة سيكون زمنا سياسيا خاصا بهم

لكن تأسيس أيدلوجيا جديدة خاصة بالأمويين سيتطلب وقتا أطول من ما يتطلبه إنشاء أمارة أو تأسيس دولة بل يحتاج إلى أجيال. (نفس المرجع السابق ،ص298)

ومنه ان اي تحليل للفكر العربي الاسلامي سواء كان من منظور بنيوي او منظور تاريخي سيظل ناقصا و تكون نتائجه مظلة اذا لم يأخذ في حسابه دور السياسة في توجيه هذا الفكر و تحديد مساره ومنعرجاته . لأن الحراك الساسي لعب دورا حاسما أنداك أثر على الحياة الاجتماعية و الثقافية خلال تلك الحقبة التاريخية لأن هذا الصراع السياسي أهمل الجانب السوسيوثقافي و الفكري آنذاك وسط الصراع السياسي و التنازع على الحكم ادى بسقوط الحضارة الإسلامية في الأخير و انتقال الحضارة للغرب بحيث استفادوا من الثقافة العربية الإسلامية و فكرها و علومها لصالحهم فصاروا على ما هم عليه الأن و بقينا نحن في الصراعات و حب السيطرة والتمسك بكرسي الحكم و الفساد وكل مظاهر التخلف و الرجعية التي تزيدنا جهل على جهل.

ومنه وبعد كله هذا نستنتج أن أي ثقافة هي في جوهرها " عملية سياسية و خاصة الثقافة العربية التي لم تكن مستقلة و لا متعالية عن الصراعات الاجتماعية و السياسية ، بل لقد كانت باستمرار الساحة الرئيسية التي تجري فيها هاته الصراعات ان الهيمنة الثقافية كانت النقطة الأولى و أحيانا الوحيدة المسجلة على جدول أعمال كل حركة سياسية أو دينية بل كل قوة اجتماعية تطمح إلى السيطرة السياسية أو تريد الحفاظ عليها . ومن هنا تلك العلاقة

العضوية بين الصراع الأيديولوجي و الصدام الإبستيمولوجي في الثقافة العربية " (نفس المرجع السابق ،ص ص6 7)

خاتمة:

يعتبر المشروع الفكري للدكتور الجابري من المشاريع الفكرية التي استطاعت أن تلفت الانتباه إلى قيمتها المعرفية وقوتها الحجاجية وصلابة عدتها الإبستمولوجية، ولعل التأكيد على محورية "نقد العقل" في مشروع إعادة بناء قضايا الفكر العربي قراءة واشتغالا. لذلك قام الخطاب الابستمولوجي عند الجابري على ما حصل لديه من قناعة راسخة مؤداها أن تجديد الفكر العربي أو نقد العقل العربي يتطلب استعمالا عقلاني للمناهج وتوظيفها تحليلها في دراسة تراثنا ،حيث مسألة زمان الثقافة العربية اعتبارا من مرجعية عصر التدوين من حيث انه العصر الذي بدأت تنتظم فيه الميادين المعرفية وتنبجس منه الفروع العلمية وتتبلور بداخله الإتجاهات العقائدية والمذهبية والفكرية ، إلا انه يعتبر زمنا راكدا ومكررا ومعادا، فلم تكن الثقافة فيه سوى ثقافة تعيد انتاج نفسها لان العلوم العربية ولدت كاملة لذلك لم تضف اليه العصور التالية اي جديد يستحق الذكر.

فمن خلال محاولة تتبع مراحل تكوين العقل العربي داخل الثقافة العربية التي تم تدوينها و تصنيفها واعادة بنائها خلال عصر التدوين وامتداداته، حاول الجابري ممارسة نوع من التأريخ للثقافة العربية و اعادة ترتيب العلاقات بين أجزائها، وانتهى بنتيجة هي ان الثقافة العربية في حاجة ماسة لإعادة كتابة تاريخها.

قائمة المراجع :

1-محمد عابد الجابري (1991)، التراث والحداثة(دراسات ومناقشات)،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت.

2-محمد عابد الجابري(2001)،نقد العقل العربي(1) تكوين العقل العربي ،ط10 ،دار الطليعة ، بيروت ،لبنان .

3-محمد عابد الجابري(2006)، مدخل الى فلسفة العلوم(العقلانية العاصرة وتطور الفكر العلمي) ،ط6 ،دار الطليعة ، بيروت ، لبنان .

1- مليكة جابر(2012)، إسهام الابستمولوجيا في تعليمية علم الاجتماع ،مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ،جامعة قاصدي مرباح ورقلة العدد الثامن، الجزائر.

2-نسيمة براق(2014)، الجابري بين ناقديه مقاربة ابستمولوجية في نقد جورج طرابيشي نموذجا رسالة ماجستير ،جامعة سطيف.

3-محمد خالد الشايب (2012)،القراءة الابستمولوجية للتراث عند محمد عابد الجابري،مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 39 ، العدد3.